المرأة العربية

كانت نظرة العرب إلى المرأة نظرة طبيعية مرتجلة

ونعنى بالنظرة الطبيعية المرتجلة أنها النظرة التى لا يشوبها إحساس دخيل من وهم العقائد أو حكم التشريع ، ولكنها تمضى على الفطرة التى توحيها ضرورة الساعة أو ضرورة البيئة ، وتختلف على حسب اختلاف هذه الضرورات .

فالعرب لم يضربوا اللعنة قط على المرأة فى جاهليتهم الأولى ، لأن اللعنة التى ضربت على المرأة فى القرون الأولى وامتدت إلى القرون الوسطى إنما جاءت من الإيمان بالخطيئة التى انحدرت بآدم وحواء من نعيم الفردوس ، وأصبحت المرأة ملعونة موصومة بالنجاسة والشر عند بعض الناس لأنهم ألقوا عليها تبعة الشهوات التى تثيرها فيهم وجعلوها حبالة الشيطان ، مذ كانوا يحسون بغوايته الخفية كلما أحسوا بغواية الشهوة الحيوانية ، ومناطها المرأة قبل غيرها من هذه الأحياء .

فالعرب لم ينظروا قط إلى المرأة هذه النظرة ، ولم يحكموا عليها قط بالنجاسة والأصالة فى الشر والخباثة ، لأنهم لم يعرفوا الخطيئة بهذا المعنى فى عهد الجاهلية .

كذلك لم يعرفوا التشريع الموضوع الذى يحكم عليها بالاستعباد والحطة المتفق عليها فى المنزلة الاجتماعية ، وإنما عرف هذا وأشباهه عند الرومان قبل الإيمان بالخطيئة وقبل الإيمان بالدين ، لأنهم كانوا أصحاب ملك عريض لا غنى لهم فيه عن ترتيب الحقوق والمعاملات بين أبناء المجتمع وبناته كافة . فلما رتبوا هذه الحقوق نظروا إلى المرأة فى زمانهم نظرتهم إلى كل ضعيف تابع لغيره . ولم يلاحظوا فى ذلك عنتاً خاصاً بها ولا ضغينة « جنسية » موجهة إليها دون غيرها . لأنهم نظروا هذه النظرة بعينها إلى أبنائهم الصغار وإلى القاصرين منهم على الإجمال . فعاملوهم معاملة الضعفاء وأعطوهم من الحقوق ما يعطاه الضعفاء ، وهم مع ذلك فى عزة الأقارب والأبناء .

هذه النظرة أيضاً لم يعرفها العرب فى جاهليتهم الأولى ، لأنهم لم يضطروا إلى وضع تشريع كامل لدولة كاملة . ولكنهم تركوا أنفسهم على سجيتها كما تختلف بها عاداتها ومأثوراتها . وارتجلوا معاملة المرأة ارتجالا كما تدعوهم إلى ذلك ضرورة البيئة أو ضرورة اللمحة الحاضرة . فربما عاملوها معاملة الرقيق المستضعف فى بعض الأحيان ، وربما نسبوا إليها الأبناء دون الآباء من الرجال فى أحيان أخرى .

والمرجع فى كل أولئك إلى أحوال المعيشة العامة فى الجزيرة العربية .

وخلاصتها السريعة أنها أحوال نزاع شديد على المرعى وموارد الماء ، لقلة المرعى والماء وكثرة طلاب هذا وذاك

وهذا النزاع الشديد يجعل القدرة على « حماية الذمار » مقدمة على كل قدرة ، لأنها مسألة تتعلق بها الحياة والفناء

وهو كذلك خليق أن يجعل المرأة فى بعض الأحوال كلاً ثقيلا على عواتق ذويها ، لأنها تستنفد القوت ولا تشترك فى حمايته والذود عنه .

وهذا الذى يفسر لنا كثيراً من النقائض العجيبة فى الآداب العربية ، لأنها — عند الرجوع بها إلى أسبابها — لا تحسب من النقائض ولا تزال متشابهة متقاربة فى الأصول .

فمن ذلك مثلا أن الحرب نشبت بين بنى بكر وبنى تغلب أربعين سنة لأن البسوس ابنة منقذ أضافت رجلا فضرب كليب ناقة ذلك الرجل وهو فى ضيافة البسوس ، فأقسم ابن أختها جساس لها « ليقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك » وقتل كليباً سيد بنى تغلب فى ثأر تلك الناقة ، أو من أجل كرامة امرأة فى ناقة جارها .

وإلى جانب ذلك يعلم القارئ أن قبائل من العرب كانت تدفن بناتها فى طفولتها فراراً من عارها أو إشفاقاً من نفقتها

ويلوح أنهما نقيضان لا يلتقيان .

والواقع أنهما غير نقيضين ، وأن البيئة التى تدعو إلى

إحدى الخصلتين حقيقة أن تدعو إلى الأخرى .

فإن آداب الحماية تجعل المرأة أحق شيء بأن يحمى وأن يغار عليه الحماة ، لأنها أمس بالرجل من أرض المرعى ومن ماء البئر ومن الجمل والناقة ، فمن فرط فيها فما هو بقادر على حماية شيء من هذه الأشياء .

ومن هنا فرط الغيرة على العرض وإيثار الموت للبنت على العار

وإذا رجعنا إلى الأصل فى « آداب الحماية » وهو النزاع الشديد الذى أوجبه شح الأرض بالرى والطعام ، فالحاجة إلى القوت خليقة أن تغرى بالقسوة المهينة وأن توسوس للمعوزين فى سنوات الضيق بالتخلص ممن يستنفد القوت ولا يعين على تحصيله أو الذود عن موارده ، ونعنى بهن البنات الزائدات عن حاجة القبيلة فى تلك السنوات .

وربما ظن بعضهم أن الوأد كله من مخافة العار كما قال البحترى وهو يعزى بنى حميد ذلك العزاء العجيب عن فقد فتاة :

أتبكى من لا ينازل بالسيـ ـف مشيحاً ولا يهز اللواء

ويختم عزاءه بقوله :

ولعمرى ماالعجز عندى إلا أن تبيت الرجال تبكى النساء

فقد قال فى تلك القصيدة :

لم يئد كثرهن قيس تميم عيـــلة ، بل حمية وإباء

يشير إلى قيس بن عاصم سيد بنى تميم الذى أقسم ليئدن كل بنت ولدت له لأن ابنته اختارت صاحبها الذى سباها على العودة إلى أهلها . فكلام البحترى إن صدق فإنما يصدق على قيس وأمثاله . ولكنه لا ينفى أن العرب وجد فيهم من يئد البنات عَيلة — أى إشفاقاً من النفقة — كما وجد فيهم من يئد البنات أنفة من العار . وآية ذلك أن صعصعة بن ناجية كان يشترى البنات من آبائهن ليستحيين فيقبلون ذلك ويبيعونهن راضين عن بيعهن ، حتى قيل إنه افتدى ثمانين ومائتى وليدة بالشراء . ولو كان آباؤهن يئدونهن خشية العار وحده لما أغنى عنهم إقصاؤهن وهن على قيد الحياة ، ولحق بهم فى بيعهن عار لا يقبله من يأنف من العار .

والقرآن الكريم يقول : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق »

ونخرج من هذا جميعه بأن هذه النقائض الظاهرة مصدرها واحد ، وهو النزاع على الرزق وما أوجبه من تقديس فضائل الحماية والدفاع عن الحرمات . فهذا المصدر يفسر لنا وأد البنات خشية الإملاق كما يفسر لنا وأدهن خشية العار ، ويفسر لنا احتقار البكاء على المرأة كما يفسر لنا إعزاز جارها حتى لتنشب الحرب أربعين سنة غضباً من إصابة ناقة فى جوار خالة رئيس ، ويرجع كلة إلى نظرة طبيعية تجرى مع الحوادث فى مجراها ، فلا يشوبها وهم من عقيدة دينية ولا يخالطها قيد من أحكام التشريع .

* * *

ومن لوازم هذا النزاع الشديد فى مظهر آخر من مظاهر البادية العربية أنه جعل المرأة عاملة نافعة فى حياة الأسرة وحياة القبيلة ، لأن المعيشة الضنك التى كان يعيشها البدوى فى صحرائه المجدبة تأبى عليه الترف والبذخ ولا تتسع لإسراف المدنى الذى ينفق ما ينفق على المرأة ولا أرب له عندها غير المتعة والمسرة ، ولا عمل لها عنده غير الراحة والزينة . فكانت المرأة العربية — فى البادية خاصة — تعمل كل ما تستطيع أن تعمله لخدمة أسرتها وقبيلتها ، وتعلم كل ما تستطيع أن تعلمه لإتقان عملها وتجويد خدمتها . فكانت ترعى الإبل والشاء وتمخض اللبن وتغزل الصوف وتصنع الخيام وتضمد الجراح وتطب لنفسها فى شؤون الحمل والولادة وتحذق من هذه الشؤون ما تجهله المرأة الحضرية فى كثير من أمم العصر الحديث ، وتعينها على ذلك حاجتها إلى تطبيب نفسها وقيامها على رعى الأحياء التى تلازمها فى غدوها ورواحها وفى صحتها ومرضها وفى حملها وولادتها وفى اختيار الأصلح والأجدى لنسلها ونتاجها .

سئلت فاطمة بنت الخرشب : أى بنيك أفضل ؟ فقالت : « والله ما أدرى . إنى ما حملت واحداً منهم تُضعًا ولا ولدته يتنا ولا أرضعته غيلا ولا منعته قيلا ولا أنمته تئدا ولا سقيته هدَبداً

ولا أطعمته قبل رئة كبدا ولا أبتّه على مأقة » .

ومعنى الحمل التضع ما كان قبيل الحيض ، والحمل الوضع ما كان على أثره ، وكلاهما مكروه عند العرب لاعتقادهم أنه يشوب النطفة بما يفسدها أو يضعفها فلا تسلم مع هذا الإفساد أو الضعف صحة الجنين .

ومعنى الولادة اليتن أن يولد الطفل منكساً ، فتعسر ولادته وقد تصاب عظامه .

ومعنى الإرضاع غيلا أن ترضع المرأة طفلها وهى حامل فلا يخلص اللبن للغذاء المفيد .

ومعنى الإرضاع قيلا أن ترضع المرأة طفلها عند اشتداد حر القيلولة فتنقع غلته ولا تعرضه لأذى الإرواء بالماء ، وهو فى البادية قليل الصفاء .

ومعنى النوم تئدا أن ينام الطفل فى موضع صعب أو وخم يؤرقه ويوبقه بوخامة هوائه .

ومعنى الهدبد اللبن المتكبد ، وإطعام الطفل الرئة أو الكبد يثقل على جوفه لصعوبة هضمها على معدته الصغيرة .

أما المبيت على مأقة فهو المبيت على غضب وكمد ، وهو ضار بكبار الرجال فضلا عن صغار الأطفال .

وقد رويت عن نساء العرب صفات أخرى للحمل والرضاعة تشبه هذه الصفة فى جملة معناها ، وهى صفات لا يشترط

أن تطابق العلم الحديث فى جميع تحليلاته وتفصيلاته بل حسبها على سذاجتها أن تدل على طب معروف فى علاج الحمل والولادة والرضاع ، وأن الأمر فى هذه الشؤون لم يكن عند المرأة العربية هملا متروكاً للمصادفات ، كما يشاهد ذلك فى بيئة الكثير من الحضريات المعاصرات .

* * *

إلا أن الشظف الذى كان يعم الجزيرة العربية ويذكى فيها ذلك النزاع الشديد على الرزق لم يكن خلواً من الجوانب التى يرق فيها ويلطف وتسرى منها الرقة واللطف إلى العلاقة بين الرجال والنساء ، فتنعم المرأة بالرفق الذى يرفع من مكانتها ويهذب من معاملتها فى سائر البيئات الإنسانية لا فى الجزيرة العربية وحدها .

وأهم هذه الجوانب جانب النشأة فى بيئة الحضارة ، وجانب النشأة فى بيئة السيادة .

فالحضارة تصقل الطباع وتهذب حواشى النفوس وتغنى القبائل عن القتال وعن ثورة الغضب للذمار المهدد بالليل والنهار ، وأول ما يظهر هذا الصقل والتهذيب فى العلاقة بين الرجل والمرأة لأنها العلاقة التى تمتحن بها الكياسة وآداب الخطاب

والسيادة تعلم السادة أن يعنوا بمكان بناتهم من العزة والرخاء ، فلا يسلمونهن لمن ينزل بهن عن منزلة العقائل المبجلات

اللواتى يغنين فى بيوتهن عن الخدمة المسفة والعيش الذليل .

ولهذا كان سادة العرب يختارون الأزواج لبناتهم ثم لا يكتفون باختيارهم حتى يشركوهن فى الرأى ويدخلوهن فى المشورة ، ومن أنباء ذلك التى استفاضت فى الأدب العربى أن الحارث بن عوف المرىّ قدم على أوس بن حارثة الطائى خاطباً فدخل أوس على زوجته ودعا ببنته الكبرى فقال لها : يا بنية ! هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاءنى طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأنى امرأة فى وجهى ردة وفى خلقى بعض العهدة ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون على وعليك من ذلك ما فيه .

فصرفها ودعا بابنته الوسطى وعرض عليها ما عرضه على الكبرى . فقالت : إنى خرقاء وليست بيدى صناعة ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ! .

فلما دعا بأختها الصغرى قالت : « . . ولكننى والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير ! » .

وهذه الفتاة الصغرى — واسمها بهيسة — هى التى تزوجها

الحارث وزفت إليه ، فأنكرت منه أن يدخل عليها فى ثياب العرس والحرب قائمة بين عبس وذبيان فلا يشغله عن الطيب والزفاف أن يصلح بينهما . . . فأكبر منها زوجها هذه الحكمة وسعى فى الصلح بين الحيين حتى استجيب إليه .

وممن جاءت الأنباء على اختلاف الروايات باستشارتهن فى الزواج هند بنت عقبة أم معاوية بن أبى سفيان . وقد خطبها سيدان من قومها فاستخبرت أباها عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما فذى ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب ، مِدْره أرومته وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن أهله » .

فقالت : « يا أبت ! الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت ؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمّه على بعد ! وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقيلة . وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة . فزوجنيه » .

ويلوح من تكرار هذه الأنباء أن استشارة البنات فى

أمر زواجهن كان سنة من السنن المرعية بين سادات العرب لا يشذ عنها إلا القليل .

* * *

ومن البديه أن هذه العادات والآداب التى تنشأ من بيئة الوطن ومناخه تعم الأمة برمتها ولا يقع فيها التفاوت إلا ما لا بد منه بين فرد وفرد ، أو بين طبقة وطبقة ؛ على المثال الذى قدمناه

بيد أنك قد ترى فى الأمة طائفة من عليتها أو بيتاً من بيوتها يخيل إليك أنهم خصوا من دونها بصفوة هذه الآداب ونقاوة هذه العادات .

أو يخيل إليك أن آداب الأمة كلها إنما كانت تحضيراً مقصوداً لهذه الطائفة أو لهذا البيت ، يأخذون منه بالخلاصة المصفاة واللباب المختار .

فإذا صح هذا الوصف فى قبيلة من قبائل العرب فهو أصح ما يكون فى قبيلة بنى تيم ، ثم فى بيت أبى بكر الصديق الذى كان فى موضع الذؤابة من هذه القبيلة

فقد اجتمعت لبنى تيم خلاصة الآداب التى نجمت من فرائض الحماية والذود عن الذمار ، ثم تناولتها بالصقل والتهذيب بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

وكان بيت الصديق على التخصيص مثلا فى هذه الآداب جميعها يحتذى به بين الحواضر العربية .

لأن سيادة هذا البيت لم تكن سيادة طغيان وقتال ، ولكنها كانت سيادة شرف وأمانة ، وكانت حصته فى الجاهلية من مقاوم الشرف حصة الوفاء بالمغارم وضمان الديون ، وعمله الأكبر فى الجاهلية يدور على التجارة ومعاملة الناس ولا يدور على البأس والإكراه

فنشأ البيت كله على الرفق والدماثة ورقة الحاشية ، واشتهر بتدليل نسائه وبناته حتى قيل — كما جاء فى الأغانى — إنهن كن أحظى خلق الله عند أزواجهن . وكانت عند الحسين ابن على رضوان الله عليهما أم إسحاق بنت طلحة ، فكان يقول ، « والله لربما حملت ووضعت وهى مصارمة لى لا تكلمنى »

وندر من أبناء الصديق رضى الله عنه من لم يكن له مع امرأته شأن يذكر فى باب المحبة بين الأزواج :

فعبد الله أكبر أولاده بنى بعاتكة بنت زيد العدوية فهام بها وشغل عن خاصة أمره وعامته ، حتى نصح له أبوه بطلاقها فطلقها وهو كاره . ثم أدركه النـــدم فنظم فيها القصائد ومنها

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق ... وما لاح نجم فى السماء محلق
أعاتك قلبى كل يوم وليلـــة ... لديك بما تخفى النفوس معلّق
ولم أر مثلى طلق اليوم مثلهـــا ... ولا مثلها فى غير شىء تطلق

وأخوه عبد الرحمن نفله عمر بن الخطاب ليلى ابنة الجودى

من حسان غسان الموصوفات بالقسامة والجمال فلازمها ولم يفارقها فترة إلا نظم الشعر فى الحنين إليها ، ومن قوله فيها :

تذكرت ليلى والسماوة بيننـــا فما لابنة الجودى ليلى ومالیا
وأنى نلاقيها ! بلى . ولعلها إذا الناس حجواقابلا أن توافيا

وأفرط فى التعلق بها حتى لامته شقيقته السيدة عائشة رضى الله عنها وما زالت به حتى جفاها ، فعادت تلومه فى جفائها وتقول له : « أفرطت فى الأمرين . فإما أن تنصفها ، وإما أن تجهزها إلى أهلها » . فجهزها إلى أهلها .

ومن ذرية الصديق « ابن أبى عتيق » صاحب عمر بن أبى ربيعة شاعر الغزل المشهور ، وكان يسمع بالجفاء بينه وبين الثريا فيركب من مدينة إلى مدينة ليصلح بينهما ، ولا يترجل عن مطيته حتى يتم الصلح على ما يرومه .

وهو مع هذا كان يتحرج من نزوات عمر ويسأله : ألم تخبرنى أنك ما أتيت حراماً قط ؟ فيقول : بلى ! فيستخبره عن قوله :

وما نلت منها محرماً غير أننـــا كلانا من الثوب المورد لابس

ثم لا يتركه حتى يجيبه بما يدفع شكه ويرده إلى حسن ظنه

* * *

فآداب الرجال والنساء فى بنى تيم كانت مثالا للرعاية التى تظفر بها المرأة العربية فى بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

ولكنها لم تزل عربية فى قرارها ، ولم تنقطع عن آداب الأمة التى جعلت عرضها أحق شىء بالحماية ، وأقمن حصن أن تمنعه وتغار عليه .

فكان أبو بكر نفسه مثلا من أمثلة الغيرة بين أهله وقومه ، وقد قال ابن سيرين : كان أغير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن نفراً من بنى هاشم دخلوا على زوجته أسماء بنت عميس فكره دخولهم عليها وشكاهم إلى النبى عليه السلام فقام على المنبر فقال : لا يدخلن رجل بعد يومى هذا على مغيّبة إلا أن يكون معه رجل أو اثنان

ولما شبب عمر بن أبى ربيعة بعائشة بنت طلحة التيمية تجمع فتيان تيم فأنذروه لئن تعرض لها بعد ذلك ليقتلنه شر قتلة . فأقسم لا عاد .

وعائشة هى التى كانت تعاتب فى كشف وجهها فتقول : « إن الله وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره . والله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد »

فهو دلال لا ينسى الصيانة ، ورفق لا ينسى الغيرة ، وآداب سيادة وحضارة لا تنسى الأصول المعروفة فى آداب البداوة

وفى هذه البيئة التى تحوطها الحمية والرعاية نشأت ربة هذه الدراسة وموضوع هذا الكتاب : عائشة بنت الصديق رضى الله عنها

ولكنها تفردت برعاية لم تشركها فيها ولائد هذه البيئة . فقد تربت على النعمة والخير ، وتدربت على العزة والكرامة ، وتعلمت القراءة التى لم يكن يتعلمها من نجباء الأبناء فى بيوت السادة إلا القلة المعدودة .

فصح أن يقال إن الرعاية التى ظفرت بها ربه هذه الدراسة كانت هى خلاصة الكرامة التى هيأتها لبناتها حمية البداوة ، وصقلتها مع الزمن شمائل الحضر ومآثر الشرف والسيادة .

المرأة المسلمة

جاء الإسلام فبدأ من النهاية التى انتهت إليها آداب الحضارة والسيادة ، وهى خلاصة العرف الذى تعارف عليه سادة الحضر فى معاملة المرأة العربية .

إلا أنه جعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكل امرأة من كل طبقة ، ولم يقصره على عقائل البيوتات كما كان مقصوراً عليهن فى آداب الجاهلية بحكم الاصطلاح والعادة ،

يتبعه من يرضاه ويهمله من يأباه

ثم زاد على هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل إليها أرفع النساء فى أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية ، لأنه جعلها مناط التكليف ووجه إليها الخطاب فى كل شىء كما وجهه إلى الرجال . إلا ما هو من خصائص عمل الرجال فى العرف المستقيم

فالمرأة فى شريعة الإسلام إنسان مرعىُّ الحقوق والواجبات...

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة »

وكل امرأة أو فتاة — من العلية أو السوقة — لا يصح زواجها حتى يرجع إليها فيه « فلا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » . . . وعلامة إذنها السكوت كما جاء فى بعض الأحاديث .

ولها أن تملك ما تشاء وأن تبيع وتشترى ما تشاء ، وأن تشترك فى الإرث وكان حراماً عليها ، لأنها لا تحمل الدرع ولا تضرب بالسيف . بل كان من حق الرجل أن يتخذها هى ميراثاً ينتقل إليه كرهاً كما يرث الخيل والإبل والحطام . فأبطل الإسلام ذلك حيث جاء فى القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً »

وقضى بأن تبايع النساء كما بويع الرجال ، فلا تغنى عن مبايعتهن مبايعة آبائهن وأزواجهن وأوليائهن . ونص القرآن

الكريم على ذلك حيث جاء فى سورة الممتحنة « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

وأبى الإسلام إلا أن يكفل لها حسن المودة كما كفل لها حسن المعاملة ؛ وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من حكم الشريعة . فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضى ، وزجر الذين يستقبلونها على غيظ وحرد . . . « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب . ألا ساء ما يحكمون » .

ومن الآداب القرآنية أن يغالب الرجل كراهتها إذا تغير قلبه من نحوها عسى أن يثوب إلى حبها أو يكون فى احتمالها خيرٌ له ولها :

« وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وكانت وصايا النبى (ص) على منهاج أوامر القرآن فى إنصاف المرأة ورعايتها ، فكان عليه السلام يقول : « خيركم خيركم للنساء » . . . و « . . . ما أكرم النساء إلا كريم

ولا أهانهن إلا لئيم »

وأسند الوصاة بها فى بعض الأحاديث إلى وحى جبريل حيث قال :

« ما زال جبريل يوصينى بالنساء حتى ظننت أنه يحرم طلاقهن » .

والتعليم الذى كان فى بيوت السادة فلتة لا يقاس عليها بين الرجال فضلا عن النساء جاء الإسلام فجعل « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » واستحبه عليه السلام حتى للإماء حيث قال : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » .

* * *

هذه هى المنزلة التى تبوأتها المرأة فى الشريعة الإسلامية .

وهذه هى المعاملة التى أوجبتها آداب الإسلام على المسلمين كافة ، وهى أرفع من كل أدب ترقت إليه الجاهلية فى الجوانب التى تهذبت فيها معاملة المرأة بين ذوى السيادة والحضارة من أهلها ، وأضيفت إليها على عهد الإسلام جوانب شتى لم يكن للمرأة فيها أيسر نصيب من رعاية أو إنصاف .

ومهما يكن من الرأى فى موقف العصور الحديثة من المرأة — وهو ما نعرض له فى ختام هذا الكتاب — فالذى

لا ريب فيه أن الإسلام قد رفعها درجات فوق أرفع منزلة بلغتها بين العرب أو بين الأمم الأخرى ؛ وأن المسلم الذى يعمل بدينه يوليها من البر فوق ما طلبته لنفسها ؛ لو أنها كانت فى زمان يطلب فيه النساء لأنفسهن حقاً من الحقوق .

* * *

ولم تكن تلك غاية المرتقى .

فإن الفرائض الدينية تطاع ولا تطاع ، وهى على هذا موكلة بالتعميم الذى يستوى فيه جميع المسلمين المخاطبين بالتكليف . وإنما طاعة التكليف فضيلة تعلوها فضائل الاختيار والرغبة والاشتياق إلى الإنجاز ، كأن الإنجاز هو المثوبة التى تغنى عن المثوبة الموعودة . وها هنا تتفاوت المراتب وتترقى الفضائل من التعميم الشائع إلى الامتياز والرجحان ، تستبق النفوس حتى يكون العمل المفروض أمنية محبوبة يؤلم النفس أن تعاق دونها ولا تبلغ الغاية منها

وتلك عليا مراتب الأنبياء .

وهى المرتبة التى سما إليها صاحب الدعوة الإسلامية بما تهيأ له من تمام الأريحية الإنسانية وملاك الفطرة النبوية

فالحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له فى طاعتها ، ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل

مخلوق حى ولا سيما الضعفاء . وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة فى طلب الخير والكمال . فقال غير مرة : « خيركم خيركم للنساء » .

وبلغ من ذلك أنه يأوى إلى البيت « فيكون فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » وأنه استحب خدمة الزوجة فى منزلها فقال : « خدمتك زوجتك صدقة » وكان أكيس رجل فى معاملة أهل بيته ، يشفق أن يرينه غير باسم فى وجوههن ، ويزورهن جميعاً فى الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس ضحاكاً بساماً » كما قالت عائشة رضى الله عنها .

ومن المبالغات المألوفة فى تناهى الرحمة أن يقال « إنه أرحم به من أمه وأبيه »

لكنه عليه السلام كان حقاً أرحم بأهله من آبائهن وأمهاتهن حتى الذين اشتهروا بالحدب الشديد على ذوى الرحم كأبى بكر الصديق رضوان الله عليه .

فنى الأحاديث عن عائشة أنها قالت : « كان بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام . فقال : من ترضين أن يكون بينى وبينك ؟ أترضين بأبى عبيدة بن الجراح ؟ قلت : لا . ذلك رجل هين لين يقضى لك . قال : أترضين بأبيك ؟ قلت : نعم . فأرسل إلى أبى بكر فجاء ، فقال :

اقصصى ! فقلت : بل اقصص أنت . . . فقال : هى كذا وكذا . . . فقلت اقصد ! فرفع أبو بكر يده فلطمنى وقال : تقولين يا بنت أم رومان اقصد ؟ من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ؟ فجعل الدم يسيل من أنفى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نرد هذا . . . وجعل يغسل الدم بيده من ثيابى ، ويقول : رأيت كيف أبعدك الله منه . . . »

وكان بره بمن مات من أزواجه أكرم من بره بمن يعشن معه ويراهن كل يوم . فلما ماتت زوجته الأولى خديجة رضى الله عنها حزن عليها وسمى العام الذى قبضت فيه « عام الحزن » ووفى لذكراها طوال حياته ، حتى لقد كانت عائشة تغار منها وهى فى قبرها أشد من غيرتها من زوجاته اللواتى يعشن معها فى كنفه ، وقالت له يوماً . هل كانت إلا عجوزاً بدلك الله خيراً منها ؟ فقال لها مغضباً : « لا والله ؛ ما أبدلنى الله خيراً منها . آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء »

وإن هذا الوفاء لذكرى الزوجة الغابرة لخليق أن يرضى المرأة — حين تنسى غيرتها — أشد من رضاها عن مكاشفتها بالتفضيل فى حياتها بجمالها وشبابها ونعيم عشرتها وصفائها

* * *

ونحن لا نعتسف التوفيق والترتيب حين نقول عن ربة هذا الكتاب — عائشة بنت الصديق — إنها لوحظت فى آداب العرب والإسلام كأنها الوجهة التى اتجهت إليها هذه الآداب فى طريق الارتقاء والتهذيب .

فمن قسمتها فى آداب العرب النسائية أنها نشأت فى خلاصة تيم الذين اشتهروا بظرف الرجال وتدليل النساء

ومن قسمتها فى الإسلام أنها ملكت حقوق المرأة المسلمة ، وتجاوزتها فملكت الحظوة التى يضفيها على نسائه نبى كريم ، يتجاوز الحقوق المفروضة صعدا فى معارج الكمال ، وكانت هى بعد هذا صاحبة الحظوة الأولى بين هؤلاء النساء .

إنها لمجدودة من بنات حواء

ولهذا الجد السعيد شأن أى شأن فى تاريخها الذى اتصل بتاريخ الإسلام

المرأة الخالدة

إن المرأة التى اجتمعت لها خلاصة الرعاية فى آداب أمة من الأمم لذات شأن فى تاريخ قومها لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب .

وأعظم من ذلك شأن المرأة التى كُتبت لها خلاصة الرعاية فى دين من الأديان ، والتى اشتركت فى سيرة النبى المرسل بذلك الدين ، ونقلت أحاديثه فى أحكام شريعته وخطرات ضميره ، ولقيت عنده الحظوة التى لم تلقها واحدة من النساء .

والسيدة عائشة رضى الله عنها هى هذه ، وهى تلك .

هى المرأة التى لوحظت فى آداب الأمة العربية كأنما استخلصت لها هذه الآداب لتظفر منها بالرعاية الأولى .

وهى المرأة التى قال عنها النبى عليه السلام إنها أحب الناس إليه ، وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التى عرفوه بها فى دينه ودنياه .

وكلاهما شأن عظيم يبوئ الإنسان بين قومه مكاناً ملحوظاً من جوانب التاريخ .

ولكن السيدة عائشة مع هذا وذاك تهم الباحثين والمؤرخين لسبب آخر غير هذين السببين ، أو للسبب الآخر المتمم لهذين السببين ، لأنها المرأة فى تكوينها الأصيل الذى خلقه الله منذ خلق حواء ، أو هى المرأة التى تتمثل فيها الأنثى الخالدة التى لا تحتويها أمة واحدة ولا يستأثر بها زمان واحد ، لأنها استمدت من طبائع الإنسانية كل ما قدر لها من دوام

وهذا هو جانب الاهتمام الصميم بكل عظيمة وكل عظيم فمهما يقل القائلون فى غرض المؤرخ من سير العظماء

فالحقيقة التى لا ريب فيها عندنا هى أن الغرض الأول أو الغرض الذى تنتهى إليه جميع الأغراض — هو توثيق الصلة بين الإنسانية وبين عظمائها وعظماتها والنفاذ إلى الجانب الإنسانى من كل نفس تستحق التنويه والدراسة .

وما من علامة هى أصدق دلالة على السيرة الناجحة من هذه العلامة .

فنحن نعلم أننا سائرون على الجادة فى التعريف بصاحب السيرة أو صاحبتها إذا نظرنا فرأينا أننا قد وصلنا من تلك السيرة إلى صميم الإنسان .

ونحن نعلم أننا تائهون فى الطريق إذا نظرنا فلم نجد بين أيدينا إلا سرابيل العظمة وأقواس النصر ومواكب الرهبة والخشوع

نحن إذا فهمنا النبى نبياً وكفى فإنما وصلنا بين ضميره وضمائرنا وبين محراب العبادة عنده ومحراب العبادة عندنا .

ونحن إذا فهمنا البطل بطلا وكفى فإنما وصلنا بين قدرته وقدرتنا وبين ضخامته بالقياس إلينا وضآلتنا بالقياس إليه .

ونحن إذا فهمنا الرئيس رئيساً وكفى فإنما وصلنا بين مركزه فى الأمة ومركزنا وبين الحقوق التى له والواجبات التى عليه ، والحقوق التى لنا والواجبات التى علينا .

ولكننا إذا فهمنا النبى إنساناً فقد فهمناه كله وفهمناه على حقيقته التى تعنينا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا ،

لأننا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا .

وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذى شأن يستحق البحث فيه .

هم غرباء حتى يقال . هذا هو الإنسان ! فإذا هم الأقربون الذين ترضينا عظمتهم لأنهم منا ونحن منهم ، ولأنهم خالدون خلود الإنسان من وراء الأقوام والأزمان

والسيدة عائشة رضى الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة الخالدة فى جميع أقوامها وجميع عصورها .

فضلها فى الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التى نلمحها حولنا ونلمحها من قبلنا فى كل أنثى .

وأنها ترينا النبى فى بيته فترينا الرجل الذى ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية ، ولكنه مع هذا هو الرجل فى بيته كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هى الأنثى الخالدة فى كل سمة من سماتها .

هذه هى الأنثى الخالدة فى غيرتها ، وهذه هى الأنثى الخالدة فى دلالها ، وهذه هى الأنثى الخالدة فى كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع

وحب المكايدة والمناوشة ، ومكاتمة الشعور والتعريض بالقول وهى قادرة على التصريح .

وكل لون من ألوان الغيرة التى تتراءى فى طبيعة المرأة فهو باد فى خبر من أخبار السيدة عائشة ، كأوضح ما يبدو وأصدق ما يكون فى طبائع النساء .

والغيرة فى طبائع النساء ألوان :

تغار المرأة على قلب الرجل الذى تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله المودة الحاضرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهى تأسى على كل ما يفوتها من شواغل ذلك القلب ، ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة .

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه ، وتغار من شريكتها فى رجلها كائناً ما كان حظها من الجمال ، وتغار من كل مزية غير الجمال ما كان فيها سبيل إلى الحظوة فى القلب الذى تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه

و « الأنثى الغيرى » فى جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هنالك فى سيرة عائشة كما روتها هى وكما رواها غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذى ينبغى لها والحق النبوى الذى هى جاهدة جهدها أن توقره وترعاه

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بنى النبى بالسيدة عائشة

ولكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها اللواتى يعشن معها ، لأنها شغلت قلب النبى بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها

وكان عليه السلام يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة فى ذلك فقال : إن خديجة أوصتنى بها . . . فقالت مغضبة : خديجة . خديجة . . لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحياناً من ثورتها على ذكرى خديجة ، فغضب فى هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها — أم رومان — عندها فقالت له أمها : يا رسول الله ؛ مالك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو يقول لها : ألست القائلة كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسألته مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدّلك الله خيراً منها ؟ فأسكتها قائلا : « والله ما أبدلنى الله خيراً منها . آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها »

أما شريكاتها اللواتى كن يعايشنها فى بيت النبى فربما كانت تغار من إحداهن لطعام يستطيبه النبى عندها فضلا عن الغيرة من الجمال أو الملاحة

تعود عليه السلام أن يستطيب العسل الذى تهيؤه له زينب بنت جحش وهى من أجمل أمهات المؤمنين وأحظاهن عنده . فأجمعت رأيها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن يبغضاه فى عسلها وقالت فيما روته عن نفسها : « . . . فتواطأت أنا وحفصة أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ وهى طعام من صمغ حلو ولكنه كريه الرائحة ؛ ولم يكن أبغض إلى النبى عليه السلام من رائحة كريهة . . . فلما دخل عندها رسول الله قالت . إنى أجد منك ريح مغافير . قال : لا : ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود إليه !

وقد عرفت زميلتها السيدة صفية بجودة الطهى ، وهى فى الأصل إسرائيلية من أهل خيبر . فنفست عليها السيدة عائشة هذه الإجادة ولم تكتم غيرتها منها بل هى التى روتها ومن حديثها عنها عرفناها . قالت « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاماً وهو فى بيتى فأخذنى أفكل — أى قشعريرة — فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام »

وهذه غيرتها من زميلات لم يجهرن بالمنافسة والمغايظة . وهى بالبداهة دون غيرتها من الزميلات اللواتى كن ينافسنها جهرة ويكاشفن النبى عليه السلام بالشكوى عن تفضيلها

عليهن فى المودة والحظوة ، وعلى رأسهن أم سلمة التى شهدت على نفسها والنبى يخطبها أنها غيور لا تطيق المنافسة ، فكان عليه السلام يجاملها ليذهب غيرتها ؛ وتغضب عائشة من هذه المجاملة على علمها بمكانتها عنده . قالت :

دخل على يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :

أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة

قلت : ما تشبع من أم سلمة ؟

فتبسم . ثم قلت : يا رسول الله ألا تخبرنى عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى ؟

قال : التى لم ترع !

قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك . كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل ، غيرى . . .

فتبسم عليه السلام .

وإذا كانت أكلة أو شربة عسل تستطاب عند إحدى الزميلات ، أو مجاملة لإحداهن جبراً لخاطر ومداراة لغيرة — تثير هذه المنافسة وتغرى بهذه المؤامرة فليس من العسير أن نفهم كيف تكون الغيرة التى تثيرها الذرية المحبوبة المرقوبة حين يرزقها النبى من إحدى زوجاته وقد حرمها من سائرهن

سنوات ، وهو شديد الكلف بها والتطلع إليها

تلك إذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المجاملات

وقد ثارت ثائرتها يوم ولد له عليه السلام ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، وكانت على هذه المزية التى امتازت بها جميلة بيضاء ، تغار منها الزميلة لجمالها وصباحتها فوق غيرتها منها لهذه الأمومة التى تفردت بها بين تسع نظيرات

قالت كتب السير : وغارت زوجات النبى ولا كعائشة

لأن عائشة رضى الله عنها كانت صاحبة المكانة الأولى التى ترفعت إليها « ماريا » بأمومتها ، فهى أحق بالغيرة على تلك المكانة من سواها

ولا ريب فى حب عائشة للنبى ولا فى سرورها ورضاها بما يسره ويرضيه ، ولكننا نطالب الطبيعة الإنسانية — والطبيعة النسوية — بما يرهقها إذا نحن ترقبنا منها أن تسر بما يثير غيرتها ، وأن تحب الرجل ثم تسر بما عسى أن يصرف حبها عنه ، أو ينقص سهمها فيه

فمن الطبيعى أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه

ومن الطبيعى كذلك أن تغار من السرور الذى يحببه إلى غيرها ، لأنها تحبه

وقد يفترق القلبان فى لحظة من اللحظات لأنهما مقتربان أشد اقتراب

وهذا الذى حدث عند مولد إبراهيم من مارية القبطية ، وهى فتية جميلة رضية ، يدنيها من قلب النبى شتى المزايا ، وأولاها هذه المزية التى تربى على كل مزية

فلما رأت عائشة فرح النبى بالوليد المومق وأحست شغف النبى به جاهدت نفسها أن تغالب غيرتها فلم تقو على هذه المغالبة ، وقال لها يوماً : انظرى إلى شبهه ! . فلم تملك لسانها أن تقول : ما أرى شيئاً . . . وربما أعجبه نمو الوليد ولفتها إلى بياضه ولحمه وترعرع جسمه ، فيعز عليها أن تعجب مثل عجبه ، لأنه هكذا كل طفل يشرب من اللبن ما يشرب إبراهيم !

وكان غضب النبى من غيرتها غضب تأديب وتهذيب ، لا غضب سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه ولا يعذرها فيما ينبغى لها أن تتوخاه أو تتحراه ، أو فيما يحسن بالمرأة التى احبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه

فقلما لامها فى شىء يمسه من غيرتها

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات هذه الغيرة التى تمس بها أناساً آخرين . فيؤاخذها مؤاخذة المؤدب الرفيق ولا يدع لها أن تعيد ما آخذها عليه

عابت أمامه زوجته السيدة صفية فذكرت من عيوبها أنها قصيرة . فكره أن تمضى فى حديثها وقال : يا عائشة ؛ « لقد

قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »

وحكت أمامه إنساناً فلم يعجبه ما يعجب الزوج المحب من هذه الفكاهة التى تسوغ وتستملح فى ذوق كثيرين، ونهاها أن تحكى الناس حكاية استهزاء

* * *

ومن « الأنثويات » الخالدة فى طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها وهى أشوق ما تكون إلى المصالحة وتقصير أمد المغاضبة

وللسيدة عائشة نوادر شتى فى هذا الدلال الذى شابهت به كرائم قومها وزادت عليهن بما بلغته من المنزلة التى لم يبلغنها

غضب النبى من نسائه لكثرة منازعاتهن وإلحافهن عليه بطلب المزيد من النفقة والزينة ، فأقسم ليهجرهن شهراً وشاع بين المسلمين أنه طلقهن جميعاً

وكان لهذه الإشاعة بين المسلمين رجة أى رجة ؛ لأن تطليق النبى زوجاته جميعاً هو أكبر طارق يتعرض له عليه السلام فى بيته ويمتد أثره إلى القبائل والبيوت التى كانت تجمعه بها صلة المصاهرة . وفى وسعنا أن نتخيل تلك الرجة بين الصحابة إذا علمنا أن صاحباً لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلا فأسرع إلى بابه يدقه دقاً شديداً ويسأل عنه فى فزع :أثم هو ؟ فلما خرج إليه قال صاحبه : حدث أمر عظيم . قال عمر : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول .

طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه

ثم تحرى عمر الخبر من رسول الله فعلم أن الأمر دون ذلك وأن رسول الله إنما أقسم ليهجرهن شهراً . فما لبث أن استأذنه عليه السلام ليبادر إلى المسلمين المجتمعين بالمسجد فينقل إليهم حقيقة النبأ ويذهب عنهم ما خامرهم من الأسى لما بلغهم من طلاق نسائه

ولا ريب أن نساء النبي أنفسهن كانت بينهن للنبأ رجة أشد عليهن من هذه الرجة ، وكان لهذه العقوبة التي لم يعاقبهن بمثلها من قبل أثرٌ في قلوبهن أبلغ من هذا الأثر

فلما انقضت الأيام التي أوعدن بها بدأ بالسيدة عائشة فدخل عليها وهي أشوق ما تكون إلى لقائه . فماذا سمع منها أول ما سمع ؟

قالت : يا رسول الله أقسمت أن لم تدخل علينا شهراً وقد دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوماً !

فقال عليه السلام : إن الشهر تسعة وعشرون

أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يوماً ؟

كلا . فقد عدتهن يوماً يوماً وعلمت ساعة دخول النبي كم مضى وكم بقي على ظنها من أيام العقوبة . ولكنها الأنثى

الخالدة كما أسلفنا ، ولا بد للأنثى الخالدة فى هذا الموقف من مكاتمة ، ولا بد لها من دلال

* * *

ولغط المشركون بقصة الإفك التى سخفوا بها غاية السخف ، فلم تعلم بها السيدة عائشة إلا بعد شهر من شيوعها وهى تملأ أرجاء المدينة

فلما سمعت بها ذهبت إلى بيت أبويها تسألهما عن هذه القصة التى لم يخبرها أحد بشىء عنها وهى فى بيت زوجها الكريم

قالت السيدة عائشة بعد تفصيل ما سمعت : « فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة فقد بلغنى عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه . فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ! فقال : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله

« فقلت لأمى : أجيبى عنى ، فقالت كذلك . والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله

« قلت — وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن —

إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به ؛ فإن قلت لكم إنى بريئة ؛ والله يعلم أنى بريئة، لا تصدقونى . ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنى بريئة ، لتصدقوننى . . . وإنى والله ما أجد لى ولكم إلا كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشى

« . . . فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان — أى الدر — من العرق فى اليوم الشاتى

« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ؛ أما الله فقد برأك

« قالت أمى : قومى إليه

« قلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله . هو الذى أنزل براءتى »

ولو تجمعت الأنوثة الخالدة فى امرأة واحدة لما كان لها من شأن هو أشبه بها من شأن عائشة فى هذه القصة : ضنوا عليها بكلمة التبرئة التى تلهفت عليها فهى تدعهم يضنون بها كما يشاءون ، ويسكتون أو يتكلمون كما يريدون وتضطجع على فراشها . . . ثم تجىء التبرئة التى تلهفت عليها :

فيجيء معها الغضب والإدلال بالعزة المجروحة .

« قومى إليه . . . لا والله لا أقوم إليه ! » . . . لم ؟ أهو الذى أغضبها ؟ كلا . ولكنها غضبى ولا بد للغضبى من استرضاء . ومن أولى من الزوج الكريم باسترضائها !

وكم كانت للزوجة المحبوبة من مغاضبات تعرّض بها ولا تظهرها ويبتسم لها النبى لأنها لا تخفى عليه وهى لا تعنى بها أن تخفى عليه !

قال لها عليه السلام يوماً : « إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت على غضبى . فقالت : من أين تعرف ذلك ؟ قال : أما إذا كنت عنى راضية تقولين لا ورب محمد ! وإذا كنت على غضبى قلت لا ورب إبراهيم . قالت : أجل والله يا رسول الله . ما أهجر إلا اسمك . » .

أليس هو أسلوب الأنثى الخالدة فى مغاضبتها وهى تحب من تغاضبه وتعرّض له بالغضب وتعنى أن يفهمه كأنه التصريح الذى لا مواربة فيه

ولابد من المواربة على كل حال

* * *

وما من سمة فى الأنوثة الخالدة غير هذه السمات إلا وجدت السيدة عائشة وقد صدقت فطرتها فيه ، وإن كانت لتروض نفسها تلك الرياضة العالية التى تجمل بزوجة محمد وبنت

الصديق وأم المؤمنين .

فإذا عرضت مناسبة للسن فليس أحب إليها من أن تقول : وكنت جارية حديثة السن ، أو حدث ذلك لجهلى وصغر سنى ؛ وربما راقها أن تختار من الروايات التى ذكروها لها عن سنها أقرب تلك الروايات إلى التصغير وأولاها أن تميزها بين زميلاتها بميزة الشباب

وقد تكون وحدها فى بيتها فتعجبها ثيابها وتحب أن تنظر إليها . قالت : « ولبست ثيابى فطفقت أنظر إلى ذيلى وأنا أمشى فى البيت وألتفت إلى ثيابى وذيلى . فدخل على أبو بكر فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قلت : ولم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فنزعته فتصدقت به . قال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك »

وهى عائشة كاملة فى هذه القصة الصغيرة : هى حواء التى تحب أن تنظر إلى زينتها ، وهى أم المؤمنين التى تحب أن ينظر الله إليها ، وهى هنا أيضاً حواء تطمح إلى زينة أعلى وأغلى

* * *

ولن تعوزنا أسباب الاهتمام بحياة كهذه الحياة ، لأنها المرأة العربية ، والمرأة المسلمة ، والمرأة الخالدة فى كل زمان